مقاصد علم العقيدة وأهدافه

أ. عبدالوهاب فرحات

جامعة الأمير عبد القادر

إن أهداف علم العقيدة، ومقاصده الأساسية يمكن في الحقيقة أن تستخلص من جملة التعريفات التي قيلت فيه، فالغزالي مثلا يقول عن علم العقيدة، "ومقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة من المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله، ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة".[1]

ومن الأقوال التي تكشف عن مقاصد علم العقيدة، وغاياته، ومنافعه ما ذكره سعد الدين التفتازاني (ت 792هـ) بعد تعريفه لهذا العلم في قوله: "وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، وغايته الفوز بنظام المعاش، ونجاة المعاد، وغاية الكلام أن يصير الإيمان، والتصديق بالأحكام الشرعية متيقنا محكما، لا تزلزله شبه المبطلين، ومنفعته في الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل، والمعاملة التي يحتاج إليها في بقاء النوع على وجه لا يؤدي إلى الفساد، وفي الآخرة النجاة من العذاب المترتب على الكفر، وسوء الاعتقاد"[2].

ويذهب ابن عربي الصوفي (ت638هـ) إلى توضيح مقاصد علم العقيدة، وأهدافه بقوله: "وعلماء هذا العلم ـــ رضي الله عنهم ـــ ما وضعوه، وصنفوا فيه ما صنفوا ليثبتوا في أنفسهم

---

[1]- انظر: الغزالي، المنقذ من الضلال. تح: جميل صليبا، وكامل عياد ط بيروت: دار الأندلس 1996م ص 91ـ 92.

[2]- سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد. تح: عبد الرحمن عميرة بيروت: عالم الكتب 1989 م ج1، ص175.

العلم بالله، وإنما وضعوه ردعا للخصوم الذين جحدوا الإله، أو الصفات، أو بعض الصفات، أو الرسالة أو رسالة محمد ـــ ﷺ ـــ خاصة، أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى هذه الأجسام بعد الموت، أو الحشر، والنشر، وما يتعلق بهذا الصنف، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين جاحدين له فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنهم أدتهم إلى إبطال ما ادعينا صحته خاصة حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم فمهما برز في ميدان المجادلة بدعي برز له أشعري، أو من كان من أصحاب النظر، و لم يقتصروا على السيف رغبة على أن يردوا واحدا إلى الإيمان، والانتظام في سلك أمة محمد ﷺ فالبرهان عندهم قائم مقام تلك المعجزة في حق من عرف، فإن الراجع بالبرهان أصح إسلاما من الراجع بالسيف فإن الخوف يمكن أن يحمله على النفاق، وصاحب البرهان ليس كذلك"[1].

ولهذا وضع علماء الكلام علم الجوهر والعرض لا غير، ويكفي في المصر الواحد واحد من هؤلاء المتكلمين ثم يوصي ابن عربي الشخص المؤمن بالقرآن أن يأخذ عقيدته منه إذ لا معرف عليه مثل كلامه[2].

ومعنى ذلك إن هدف علم العقيدة عند ابن عربي هو الدفاع عن العقائد الإسلامية ضد خصومها المبطلين، وهناك فائدة أخرى يتضمنها هذا العلم هو اجتذاب هؤلاء الخصوم إلى حضيرة الإيمان.

إما أن يكون مقصد هذا العلم هو تحصيل العقيدة فهذا ما ينكره ابن عربي أشد الإنكار محتذيا في ذلك بالغزالي وفي هذا المعنى يقول: "وعلم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس بل شخص واحد يكفى منه في البلد مثل الطبيب، والفقهاء العلماء بفروع الدين ليسوا كذلك بل الناس يحتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة، وفي الشريعة بحمد الله الغنية والكفاية ولو

---

[1]- ابن عربي، الفتو حات المكية، ط. بيروت: دار صادر [د.ت] ج 1 ص 35.

[2]- المرجع نفسه والصفحة.

مات الإنسان وهو لا يعرف اصطلاح القائلين بعلم النظر مثل الجوهر والعرض والجسم والجسماني، والروح والروحاني لا يسأله الله تعالى عن ذلك، وإنما يسأل الله الناس عما أوجب عليهم من التكليف خاصة والله يرزقنا الحياء منه"[1].

ثم يأتي بعد ابن عربي عالم آخر، وهو ابن خلدون فيقصر وظيفة هذا العلم على الدفاع ورد ما يثيره أهل الإلحاد على العقائد الإيمانية وفي هذا المعني يقول:"والمتكلمون إنما دعاهم إلي ذلك أي الحجاج، عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ـــ كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضتهم"[2].

ويذهب ابن تيمية (ت 728م) إلي أن الرد على المبتدعة الذين خالفوا العقائد الدينية، ودفع ما أثاروه من شبهات وتزييف مزاعمهم هدف جليل وعظيم.

ويحذر رحمه الله من خطورة إهمال النظر في أصول الدين، والانصراف عن التعمق في دراسة مسائل العقيدة، ويعلن أنه من الضروري أن تتخصص طائفة من الناس لمهمة التصدي لأهل البدع والرد على أصحاب الديانات الأخرى، فمن تخصص في هذا المجال، وتكلم لأجل الله كان من المجاهدين في سبيل الله على أن يتزود بالعلم، إذ لا يحل للرجل أن يقفو ما ليس له به علم[3].

وينقل الإمام ابن تيمية عن "أحمد ابن حنبل" قوله لّما سئل: "عن الرجل يصوم ويصلي، ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في هذه البدع؟ فقال إذا صام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل"[4].

---

[1]- المرجع نفسه، ج1، ص 36.

[2]- ابن خلدون، المقدمة، ط. بيروت: دار الجيل.[د.ت]. ص. 548.

[3]- لمزيد من التوسع ينظر: فتوى ابن تيمية في الغيبة. مجموعة الرسائل والمسائل، تح: حياة مأمون شيخة. ط1 بيروت دار الفكر 1986م. ج5 ص251 ـــ 253.

[4]- المرجع نفسه ص 251.

ويعلق ابن تيمية على رأي أحمد بن حنبل المتقدم فيقول: "فبيّن ــ أي أحمد بن حنبل ــ أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله، ودينه، ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإنّ هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الذين إلاّ تبعا وأمّا أولئك فيفسدون القلوب إبتداءا"[1].

أمّا التهانوي فيذهب إلى توضيح مقاصد علم العقيدة وأهدافه بقوله: "وفائدته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم. وحفظ قواعد الدين على أن يزلزلها شبه المبطلين، وأن تبتنى عليه العلوم الشرعية ــ أي تبتنى عليه ما عداه من العلوم الشرعية ــ فإنه أساسها، وإليه يؤول أخذها واقتباسها.. وغاية هذه الأمور الفوز بسعادة الدارين"[2].

ولكي نعرف فضل هذا العلم أكثر علينا أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث للعقائد الإسلامية،لو أن الميدان خلا من الذائدين عن حياض الإسلام،وصال خصومه وجالوا في أرضه يثيرون الشبهات والأباطيل.

أما كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى تسرب الشك إلى قلوب المسلمين وزعزعة أركان العقيدة، وضعف أثرها في نفوس المؤمنين بها. وهذا ما كان ملحظا للإمام المحدث الدارمي فقال: "إنه بعد أن ظهرت البدع من أهلها، وجب على العلماء، التصدي لهم بالتكذيب والتكفير منافحة عن الله كيلا يسب ولا تعطل صفاته، وذبا عن ضعفاء الناس كيلا يضلوا بمحنتهم هذه، من غير أن يعرفوا ضدها من الحجج التي تبطل دعواهم وتبطل حججهم"[3]، ثم

---

[1]- المرجع نفسه، والصفحة.

[2]- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون تح:أحمد بسج، ط1. بيروت:دار الكتب العلمية1998م ج1، ص33.

[3]- نقلا عن: يحيى هاشم فرغل، عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، ط1: القاهرة: مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية 1972م ص308.

يضيف قائلا: "أو طمعتم معشر "الجهمية[1] و"الواقفة"[2] أن تنصبوا الكفر للناس إماما، تدعونهم إليه وتسكتوا أهل السنة عن الإنكار عليكم، حتى يروج على الناس ضلالكم؛ لقد أسأتم بأهل السنَّة الظن، ونسبتموهم إلى العجز والوهن"[3].

والواقع إن الحق لا يستطيع أن يصمد وحده، إذا وقف أمام جيوش الباطل بلا نصير، بل لا بد له من أنصار يذودون عنه، ويوطدون دعائمه ويخرسون أصوات الباطل ويقوضون قواعده، وهذا ما قام به علماء العقيدة تجاه الإسلام – دين الله الحق– فقد ثبتوا عقائده وأكدوها وأقاموا الأدلة على صدقها وصحتها، وذادوا على حماها وفندوا الشبهات والشكوك التي كانت توجه إليها وناقشوا الآراء والنظريات المخالفة لهذه العقائد وأقاموا البراهين على بطلانها وتفاهتها، ولا نبالغ إذا قلنا ما قال به الجاحظ: "لو لا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع النحل"[4].

وبالنظر في هذه الأقوال التي ذكرت في وظيفة علم العقيدة وغايته يمكننا أن نستخلص مجموعة من الأهداف والمقاصد لهذا العلم تتمثل فيما يأتي:

تقوية الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية بإيراد البراهين العقلية على صحتها، ذلك لأنها منشأ السعادة الأبدية وأن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي.

الدفاع عن هذه العقائد، ورد الشبهات التي ينشرها خصومها ضدها من الكفار، والمنافقين.

إبطال العقائد المخالفة لأصحاب الملل والأهواء والنحل.

---

[1]– نسبة إلى جهم بن صفوان (ت 124 هـ) مؤسس فرقة الجهمية من أهم آرائه الكلامية: القول بالجبر، وإنكار الصفات الإلهية، والقول بخلق القرآن، وبأن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار يفنيان انظر في ترجمته: الشهرستاني، الملل والنحل، تح:جميل صدقي العطار ط1 بيروت: دار الفكر 1999م، ص69.

[2]– فرقة من فرق الشيعة قالوا بإمامة محمد الباقر وابنه جعفر إلا أن منهم من توقف وقصر الإمامة في واحد منهما و لم يسقه إلى أولادهما. انظر: الشهر ستاني،الملل والنحل، ص133.

[3]– يحيى هاشم فرغل، عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام،ص308.

[4]– الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام هارون. ط3. بيروت: 1969م ج4 ص206.

هداية المسترشدين بإيضاح الحجة لهم وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم.

توجيه سائر العلوم الشرعية الأخرى وفق مقتضاه لأنه أساسها، والأخذ فيها بدونه كبان من غير أساس.

وفي الأخير نخلص أن علم العقيدة لم ينشأ رغبة في الجدال والمراء في الدين كما قد يتوهم البعض، وإنما نشأ أساسا دفاعا وجدالا عن الدين، وللرد على التيارات المناوئة التي أرادت أن تنقض عرى هذا الدين من أسسه، ولا شك أن هذه مبررات موضوعية لقيام هذا العلم هذا داخل الجماعة المسلمة، ولما كانت غاية هذا العلم وفائدته على الوجه الذي ذكرنا، فإنه حري بأن يكون من أشرف العلوم وأفضلها على الإطلاق.